

النص الديني والمنهج الحضاري

أ/ بلشير محمد - جامعة تلمسان

مقدمة:

لمعرفة لغة النص الديني واستيعاب خصائصه أهمية كبرى في اكتساب الكفاءة لفهم الخطاب الديني وتمثله في الواقع الإنساني؛ حيث يتم الربط بين هذا الواقع الذي يعالجه باستمرار، بمعرفة خصائص هذا الواقع وتحديد الإجابات الشرعية على أسئلة العصر والواقع. ومن أجل تحقيق هذه المهمة ، لابد من وجود منهج للإجتهد، وطريق علمي منهجي لاستنتاج النص الشرعي بأسئلة الواقع وتطوراتها.

فما المنهج الخاص للتعامل مع النص الديني؟ وما الأداة العملية لتحليل هذا النص واستنباط المفاهيم الحضارية منه؟

وعليه البحث يندرج في سياق المباحث التي تهتم بالفكر الإسلامي عموما وبالنص التأسيسي خصوصا(القرآن الكريم) هدفه تقديم أداة معرفية حديثة لتحليل النص الديني واستنباط المفاهيم الحضارية منه ، والوقوف على مقاصد الشارع من تطبيقها. وهذه الأداة المنهجية هي " المقصد " وسنحاول ربط هذا المفهوم بأصول علمية ذكرها علماؤنا . قديما وحديثا . ، ووظفوها في فهمهم وتعاملهم مع النص القرآني ، مع نموذج تحليلي من آي القرآن الكريم يوضح كيف يكون للمنهج المقصدي أثر قوي في فهم النص القرآني .

أولا: تحديد المصطلحات .

1. تعريف المنهج: المنهج والمنهاج ، الطريق الواضح (1) ، في تحصيل علم وتعليمه ، وهو علم قائم بذاته يهتم بالتفكير في الدرجة الأولى ، ولهذا وصفه بعض العلماء بأنه " خطة منظمة لعدة عمليات ذهنية أو حسية بغية الوصول إلى كشف حقيقة أو البرهنة عليها " (2).

كما عرفه عبد الرحمان بدوي بأنه " الطرق إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد العامة ، تهيمن على سير العقل وتحديد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة " (3).

وتختلف المناهج بحسب طبيعة الظواهر التي تدرسها ، فالمنهج الرياضي غير المنهج الاستقرائي المطبق في العلوم الطبيعية ، وكلاهما يختلف عن المنهج التاريخي ، ولكن كل واحد من هذه المناهج يتكون من عدد من المراحل والقواعد والعمليات التي يجري إتباعها وتطبيقها، وفقا لخطة معينة كي يتم التوصل إلى تحقيق الغايات المرتبطة بالمنهج المحدد ، بشرط واحد أن تلاعى العملية في المراحل التي تقطعها كما يذكر عمار جيدل (4).

2. تعريف النص :

يعرف النص بأنه مجموعة من الأحداث الكلامية ذات معنى وغرض تواصلية تبدأ وجودها من مرسل للحدث اللغوي وتنتهي بمتلق له، ومؤمله لأن تكون خطابا، أي أن توجه إلى شخص بعينه(5)، ومن ثم يشترط وحدة موضوع النص ووحدة مقصده (6).

والنص في تصور كثير من المعاصرين ، يتجاوز الكينونة اللغوية المحدودة ولا ينحصر في مقولات اللغة على الرغم من أنه متشكل منها ، بل يراعي الواقع الخارجي ، ومن ثم فإن النص هو المعادل اللغوي للواقع الإنساني والكوني (7).

أما علماء أصول الفقه فتحدثوا في النص بعبارات كثيرة أشهرها ما ذكره الإمام الشافعي بأنه " المستغني بالتنزيل عن التأويل " (8) ، أو هو "الكلام الذي يفهم منه المعنى، سواء من نصوص القرآن أم السنة " (9).

ثانيا: المنهج اللغوي المقصدي وأثره في تفسير النص القرآني:

يدرج العلماء ضمن مفاهيم النص مفهوم "القصد " ، وهو الغرض الذي يبتغيه المتكلم من الخطاب والفائدة التي يرجو إبلاغها للمخاطب ، فلن يكون هناك " نص " ولا خطاب دون قصد (10). كما تعرف مقاصد الشريعة بأنها " المعاني والأهداف الملحوظة للشرع في جميع أحكامه أو معظمها أو هي الغاية من الشريعة، والأسرار التي وضعها الشارع عند كل حكم من أحكامها.. " (11)، كما عند الإمام ابن عاشور بأنها المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها ، بحيث لا تختص ملاحظتها بالكون في نوع خاص من أحكام الشريعة. أما المقاصد الخاصة فهي الكيفيات المقصودة للشارع لتحقيق مقاصد الناس النافعة ، أو لحفظ مصالحهم العامة في تصرفاتهم الخاصة (12).

ولهذا قد ثبت أن الشريعة موضوعة لتحقيق مصالح عاجلا أم آجلا ، إما يجلب النفع لهم ، أو لدفع الضرر و الفساد عنهم ، كما يدل عليه الاستقرار وتتبع مراد الأحكام (13).

والمقصود بالمنهج اللغوي المقصدي ، التزاوج بين القضايا اللغوية الوضعية، والأسلوبية ، والوظيفية ، ومعرفة مقاصد النصوص القرآنية والحديثية. وهو منهج يمكن إدراجه ضمن الدراسات اللغوية الموسعة (14) ، ويمكن الإفادة منه في رصد التطورات الحديثة في مجال التحليل اللغوي .

فالبحث عن المقصد يشمل الفحص عما تتضمنه العبارة اللغوية من حكمة، أو معنى ، أو علة ، أو غيرها ، مما تحتمله العبارة ، ولا تتنافره. ويتم تحديد المقصد بالاستناد إلى فهم الرسالة الإسلامية بصفة عامة ، والرؤية الموضوعية لصلة نصوص الوحي بعضها ببعض (15) . ولا يصح تحليل جزء من هذه النصوص دون اعتبار أجزائها الأخرى ، وفقا للنظرة الموضوعية الشمولية للعلاقة بين النصوص وبين الوقائع التي تطبق فيها. وإذا كانت الوظيفة الاتصالية في الدرس اللغوي الحديث موضوعية تتمحور حول الجملة أو النص ، ويصف هذا الدرس المقدرة الاتصالية للمتكلم. المخاطب ، فإن البحث عن المقصد يمتد إلى ما بعد الجملة والنص لينطلق من علاقة عناصر الخطاب بالمعنى إلى الغاية الحضارية العليا لنصوص الوحي (16).

فنظرية المقاصد تقوم على التسلسل الفكري المنطقي الذي ينبع من النظر العقلي، ومن الأسس العقدية للإسلام، وكذلك من نتائج استقراء تفاصيل النصوص الشرعية (17). وتبرز صلة هذه النظرية بالدرس اللغوي في أن من أنواع المقاصد كما يذكر الإمام الشاطبي (18) ، قصد الشارع في وضع الشريعة للإفهام ، وهو مقصد يفيد أن القرآن الكريم منزل بلسان العرب ، ولا يكون الفهم السليم للشريعة ومقاصدها إلا من جهة لسان العرب ، وفي هذا يقول الإمام ابن تيمية " إن الله لما أنزل الكتاب والحكمة باللسان العربي ، وجعل رسوله مبلغا عنه الكتاب والحكمة ، بلسان العربي ، وجعل السابقين إلى هذا الدين متكلمين به ، لم يكن سبيل ضبط الدين ومعرفته إلا بضبط هذا اللسان ، وصارت معرفته من الدين " (19).

فإذا كان القصد للإفهام من مقاصد الشريعة ، وهذا أمر ضروري في التعامل مع النصوص ، وكان فهم هذه النصوص وفق مقتضيات اللسان العربي من أهم كفايات فهم المقاصد ، فإن محاولة الاستفادة من التطورات الحديثة في الدرس اللغوي الوظيفي والسياقي تفيد دون شك في النظر في مقاصد الشريعة في ضوء

المعهود من أساليب العرب ، " لأن لسان العرب هو المترجم عن مقاصد الشرع ... وإن الشريعة لا يفهمها حق الفهم إلا من فهم اللغة العربية حق الفهم ، لأنهما سيان في النمط"(20).

التحليل المقصدي :

ينظر التحليل المقصدي في وظائف كل عنصر من العناصر المكونة للنص، من مفردات، وتراكيب ، وأساليب من أجل تبين المقصد من النص ، كما في وظيفة النص بأكمله في تحقيق المقصد ، وإيصال المتعامل من النص إلى استجلاء المعاني التي يقصدها الشارع من سرد الخطاب ، مما يعينه على استكشاف الغايات المصلحية للأحكام المبنية عليه ؛ وفي هذا النظر تحقيق للرؤية الموضوعية الشمولية لنصوص الوحي . وللتعرف على المقصد يجب الوعي بالأحداث التاريخية والوقائع الاجتماعية المحيطة بتطبيق النص موضع التحليل ، وإبراز المسائل النفسية والاجتماعية والفكرية والثقافية الضرورية لفهم النص ، وإبراز المقصد منه(21).

وبهذا فإن التحليل المقصدي يجاوز التحليل الوصفي السطحي (البلاغي ، المعجمي ، الجملي ، الصرفي ، الصوتي ...) إلى أعماق النص ، ويتعد عن التحليل الفلسفي الجدلي ، ويحتفظ بمضمون النص ويرتفع به إلى التطبيقات المتجددة له ، كما يهتم التحليل المقصدي بما يلي(22).

- 1 . بيان سياقات استخدام المفردات والتراكيب الواردة في النص : ويتضمن تحديد أنماط السياق المؤثر في استخدام المفردات والتراكيب للمعنى الخاص أو العام المقصود .
- 2 . بيان الوظائف التداولية والاجتماعية والنفسية والأخلاقية المتحققة باستخدام المفردات والتراكيب : ويحتوي توضيح الوظيفة التي تستخدم المفردات والتراكيب لأدائها في مختلف مواقف الاتصال اللغوي ، وبيان الأثر النفسي لاستخدام المفردات والتراكيب في النص ، والأثر الاجتماعي الذي قصد تحقيقه من الاتصال اللغوي بالنص ، والمسائل الأخلاقية التي يشتمل عليها النص .
- 3 . الربط بين الوظائف التي تؤديها هذه المفردات أو التراكيب في مواقف خطابية متعددة : ويعني النظر في صلة الوظائف التي تؤديها المفردات والتراكيب في موقف النص المحدد بمواقف أخرى يستخدم فيها النص (المفردات والتراكيب) من أجل تحقيق وحدة موضوعية كلية لنصوص الوحي .

4. إبراز عناصر النص التي قد تنبئ بالمعنى الخاص بصاحب النص ، ووجهة نظره في المقصود منه : ويحتوي على إبراز علاقة عناصر الخطاب بمعنى النص ، والمفردات والتراكيب التي تحمل معاني وإيحاءات بموقف صاحب النص من القضايا المضمنة فيه من خلال هذه العناصر . ولهذا صلة بالمعنى الكامن وراء المعنى الظاهر في النص .

5. الفحص عن المقصد الذي يرمي إليه النص ، واقتراح صياغة جديدة مفسرة له مستفادة من المعلومات المتوفرة طبقا للغاية الحضارية والمقاصد الخاصة والعامة للنصوص : ويشتمل على إبراز المقاصد العامة من استخدام التراكيب ، أو المفردة ، أو النص بأكمله ، والمقاصد الخاصة من استخدامها ، وذلك في ضوء المفاهيم الحضارية لنصوص الوحي ، والمصالح ، أو المفاسد التي يبينها النص ، ومحاولة اقتراح صياغة جديدة مفسرة تتوافق مع المقاصد المستنبطة منه .

نموذج تطبيقي من القرآن الكريم

نقدم نموذجا تحليليا من القرآن الكريم مطبقين عليه المنهج اللغوي المقصدي كما عرفنا به سابقا ؛ ومن الأمثلة التي اهتمدنا فيها إلى ذلك ، ونعتقد أنها توضح ما قلناه بصورة جلية ، قوله تعالى :
(أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ) " سورة العنكبوت : الآية 45 " .

1. سياقات استخدام مفردات النص وتراكيبه :

. يفيد السياق وجوب إقامة الصلاة على الوجه المعهود (أَقِمِ) .
. يستفاد من السياق أن الخطاب موجه لأي إنسان مسلم أو يتوقع أن يسلم، فالمخاطب هو النبي صلى الله عليه وسلم، ومن آمن إلى يوم القيامة .

. تفيد الجملة الاسمية المنسوخة الحكمة من إيجاب إقامة الصلاة (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى...) .
. يفيد السياق ارتباط وجوب الصلاة بوجوب تلاوة القرآن لمن يتقنها (أُوحِيَ إِلَيْكَ) وعظمة ذكر الله (وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ) ، وإحاطة علم الله بأفعال عباده (وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ).

2. الوظائف التداولية والنفسية والاجتماعية:

تداولية: طلب تنفيذ المخاطب للأمر بالصلاة، وتفيد نصوص كثيرة وجوب هذا الطلب

و (إقامة الصلاة) هي الحدث العلمي والمطلوب ظهور دورها في اجتناب الفحشاء والمنكر.

نفسية: بيان وظيفة تزكية النفس لإقامة الصلاة (تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ).

اجتماعية : الإفادة بوظيفة الصلاة وأثرها في تنقية العلاقات الاجتماعية من المفساد (وَالْمُنْكَرِ) .

أخلاقية : توضيح الرسالة الأخلاقية لأركان الإسلام بربط الصلاة بالتنفير عن الأفعال غير المرغوب فيها ، وذكر فرضيتها في سياق يحمل على الالتزام بها و الإخلاص فيها.

3. الربط بين الوظائف حسب المواقف:

. تمثل إقامة الصلاة إيفاء بالحق الإلهي ، وتحقيق الصلاح النفسي ، والنقاء الاجتماعي ، والالتزام الخلقي ، وقد ارتبطت إقامة الصلاة بواجبات ومسؤوليات أخرى.

. يؤكد النص صلة امتناع المصلي عن الفحشاء والمنكر بمواظبته على الصلاة، وحرصه على الالتزام المخلص بأركان الإسلام وفعل الخيرات .

. من العناصر المنبئة بالمعنى الخاص صيغة (أفعل) الأمرية التي تنبئ بفرضية الصلاة ، وتنبئ وسائل التأكيد في الجمل الاسمية وأدوات التوكيد بأهمية المراقبة الإلهية في أدائها ، ويثبت هذا المعنى اختتام الآية بإفادة إحاطة علم الله بكل ما يصنع عباده.

4. مقصد النص الخاص والعام :

المقصد الخاص: إفادة فرضية الصلاة وفرضية حسن أدائها.

المقصد العام: تحقيق قرب العبد المصلي من ربه من خلال المداومة على إقامة الصلاة والاستمرار في التخلي عن المعاصي، وبذلك يتحقق التعايش السلمي بين أفراد المجتمع البشري.

5. المعنى الإجمالي للآية :

(إن الصلاة مفروضة عليك، ويلزمك حسن أدائها وفق شروطها والإكثار من الذكر والتلاوة فيها بهدف تمثل الواجب وتحقيق التزكية الروحية والتعايش الاجتماعي الملهذب.)

الخاتمة :

يكشف البحث عن طائفة مهمة من النتائج منها :

. تعتبر اللغة العربية مصدرا للمعرفة الإسلامية .

- . المنهج اللغوي المقصدي يقدم بيانا للغايات الحضارية التركيبية والأسلوبية لنصوص الوحي ، كما يعطي بيانا للغايات الحضارية التي من أجلها وردت هذه النصوص.
- . للتحليل المقصدي أثر بارز في تفسير النص وتبينه منها مايلي:
- أ . سياقات استخدام مفردات النص وتراكيبه.
- ب . الوظائف التداولية والنفسية والاجتماعية والأخلاقية.
- ج . الربط بين الوظائف حسب المواقف.
- د . مقصد النص الخاص العام .
- هـ . المعنى الإجمالي للآية .
- فالقراءة المقاصدية للنص هي اليوم في حاجة إلى دفع جديد ، بصفة حاسمة في تطوير الفكر الإسلامي، وإخراجه من الأزمة التي يتخبط فيها ، والتي تغذي الاصطدامات الشديدة في صلب المجتمع البشري.

الهوامش والمراجع :

- (1) فريد وجدي : دائرة معارف القرن العشرين ، المجلد 10 ، دط ، ص: 379، 380.
- (2) إبراهيم مذكور: المعجم الفلسفي، منشورات مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، مصر ، 1979، ص: 195.
- (3) عبد الرحمن بدوي : مناهج البحث العلمي ، مطابع الكويت ، الكويت ، 1977 ، ص: 5
- (4) عمارجيل : منهج الاستدلال على العقيدة ، مقال بمجلة المواقف ، تصدر عن المعهد الوطني لأصول الدين ، الجزائر، العدد 02، ذوالحجة 1413هـ / جوان 1993م ، ص : 23.
- (5) براجع : وولفغانغ هاينه من وديتر فيهفبايغر : مدخل إلى علم اللغة النصي : ترجمة: فالخ بن شيب العجمي ،نشر جامعة الملك سعود ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ، ط1 ، 1996م ، ص: 123.
- (6) سعيد حسن بحيري : علم لغة النص " المفاهيم والاتجاهات " ، الشركة المصرية العامة للنشر ، القاهرة ، مصر ، 1997م ، ص : 109.
- (7) براجع : أبو محمد مسعود صحراوي : المنهج السياقي ودوره في فهم النص، مقال منشور بمجلة الشهاب على الانترنت www.chihab.net
- (8) الشافعي (محمد بن ادريس): الرسالة : تحقيق :أحمد محمد شاكر ، المكتبة العلمية ، بيروت ، لبنان ، ص: 14.
- (9) يوسف حامد العالم : المقاصد العامة للشرعة الإسلامية ، الدار العلمية للكتاب الإسلامي ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ، ط2، 1994م، ص : 343.
- (10) أبو محمد مسعود صحراوي : المرجع السابق.
- (11) وهبة الزحيلي : أصول الفقه الإسلامي ، دار الفكر ، دمشق ، سوريا ، ط2، 1992م ، ج2 ، ص : 1017.
- (12) اسماعيل الحسني : نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، فرجينيا ، أمريكا ، 1416هـ ، ص: 117.
- (13) الشاطبي : المواقف ي أصول الفقه ، مطبعة المكتبة التجارية ، القاهرة ، مصر ، ج 2، ص: 06.
- (14) ميشال زكريا : الألسنية (علم اللغة الحديث) المبادئ والأعلام ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان ، 1983م ، ط2، ص: 145.
- (15) براجع محمد الغزالي : كيف تتعامل مع القرآن الكريم ، مكتبة رحاب ، الجزائر ، 1995م، ص: 83.

- (16) أحمد شيخ عبد السلام : نحو منهج لغوي مقصدي في التعامل مع نصوص الوحي ، مقال بمجلة التحديد ، تصدرها الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا ، ص 2 ، ع 5 ، فبراير 1999م ، شوال 1419هـ ، ص :156.
- (17) أحمد الريسوني : نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، فرجينيا ، أمريكا ، 1992م ، ص :156.
- (18) الشاطبي: المرجع السابق ، ج 01، ص :22.
- (19) ابن تيمية : اقتضاء الصراط المستقيم ، حققه وخرج أحاديثه عصام فارس الحرساني ومحمد إبراهيم الزغلي ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، ط 01، 1993م ، ص :179.
- (20) الشاطبي : المرجع السابق ، ج 4، ص :324.
- (21) أحمد شيخ عبد السلام : المرجع السابق ، ص :161.
- (22) المرجع نفسه ، ص :163.